تأسيس كنيسة الحكمة في بغداد عام 1929 دراسة تأريخية

د.لقاء شاكر الشريفي
جامعة بغداد – مركز احياء التراث العلمي العربي – قسم وثائق بغداد
Emil: s. leqaa@yahoo.com

الخلاصة

يسلط البحث الضوء على تنافس المصالح الاجنبية في العراق لاسيما بعد تأسيس الحكم الملكي عام 1921م ، أذ امتازت هذه المدة بنشاط أمريكي واسع في العراق عامة وبغداد بشكل خاص ، وقد أزداد ذلك النشاط بعد حصول الامريكان على الامتياز الذي جاء في ضوء المادة الرابعة من معاهدة 1930م ، التي ضمنت وبشكل رسمي المصالح الامريكية في العراق ، كما ناقش البحث في ثناياه الجهود التي بذلها الاباء اليسوعيين في بغدا د في تحويل كنيسة الحكمة من مجرد مكان للعبادة والطقوس الخاصة بالديانة المسيحية الى مدرسة خاصة بنشر العلم والثقافة على غرار المدارس الامريكية ، عرفت فيما بعد بـ (كلية بغداد) ، أذ أصبحت هذه الكلية من المدارس المهمة في بغداد

Church of Wisdom in Baghdad in 1929 Historical study

Dr.leqaa Shaker Khattar
University of Baghdad - Center of Revival of Arabian Science Heritage - Baghdad Documentation Department

Abstract

The study highlights the rivalry of foreign interests in Iraq, especially after the establishment of the monarchy in 1921. This period was characterized by extensive American activity in Iraq in general and Baghdad in particular. This activity increased after the Americans obtained the concession which came in the light of Article IV of the 1930 Treaty. Which officially guaranteed US interests in Iraq. The research also discussed the efforts of the Jesuit Fathers in Baghdad to convert the Church of Wisdom from a place of worship and rites of the Christian religion to a school of the propagation of science and culture along the lines of American schools, College Baghdad), which has become an important school in Baghdad

الاباء اليسوعيون وودورهم في بغداد منذ عام 1921

يرجع تاريخ وجود الاباء اليسوعيين الى العراق مع بدايات العقد الثاني من القرن العشرين لاسيما بعد قيام الحكم الوطني في العراق عام 1921 وتحسن الظروف في بغداد مما اعطى ذلك عاملا تشجيعيا لرئيس الكنيسة الكاثوليكية في العراق الاب مار أيمانوئيل توماس الثاني بتقديم التماس الى روما يطلب فيه فتح كلية للاباء اليسوعيين في بغداد [1] ، أذ كان الاباء اليسوعيين يرغبون بتاسيس معاهد تهذيبية وخيرية في العراق وكانت بغداد ضمن مشاريعهم المستقبلية

كان طموح المبشرين الامريكان ومنذ فترة العشرينات يستند وبشكل رئيس بالعمل على تأسيس مدرسة ثانوية في بغداد لتكون بمثابة نواة لجامعة امريكية شبيهة بنظام التعليم في أمريكا [2]

البدايات الاولى لتأسيس كنيسة الحكمة

انطلقت البدايات الاولى لتأسيس كنيسة الحكمة في بغداد من قبل الاباء اليسوعيون في بغداد مع بداية عام 1929 ، وتم الانتهاء من بناءها عام 1932 بمنطقة الشماسية المتاخمة للصليخ وعلى مساحة تقدر ب(37) دونم ، وتميزت الكنيسة ببناء من طراز خاص سواء على المستوى المعماري أو الحدائق الخضراء التي تحوط بها ، أذ عمد الاباء اليسوعيون الى استقدام مجموعة من المهندسين البريطانيين وكان من اهمهم المهندس (جي أم ويلسون) و (مايسون) و(كوبر) [3]

وكانت مهمة التصميم لكنيسة الحكمة هي من نصيب المهندس المعماري (جي أم ويلسون) حيث حافظ المهندس البريطاني على الموروث الارامي في تصميم الكنائس الشرقية ، الذي يقسم الفضاء الى ثلاثة أقسام تتألف من المذبح أو المحراب وقسم وسطي وأخر خلفي ولم تأخذ شكلا بازليكيا أو متصالبا ، كما حدث في الغرب منذ القرون الوسطى[4]، حيث جاء تصميم كنيسة الحكمة منسجمة مع طراز العمارة الاسلامية في العراق من خلال محاكاة الصوامع والمنائر الاسلامية ، أذ استخدم المهندس البريطاني (جي أم ويلسن) خامة الطابوق التي كانت تستخدم للبتاء في العراق مما جعل الكنيسة تمتاز بجمالها وحدائقها الخضراء التي تحيط بها من كل جانب [5]

صورة رقم (1) توضح البناء الخاص بكنيسة الحكمة

اهم ملحقات كنيسة الحكمة

عمد الاباء اليسوعيون في كنيسة الحكمة الى جعل الكنيسة مكانا للتربية والتعليم فضلا عن دورها كمركز للعبادة ، وكان الملحق عبارة عن مدرسة ثانوية تعرف على نطاق واسع في العراق بأسم كلية بغداد ، على الرغم من أن المساعي لتأسيس كلية بغداد بدأت منذ عام 1928، إلا أنها لم تفتح أبوابها إلا في السادس والعشرين من أيلول عام 1932، وذلك لأن الفرنسيين الكاثوليك، الذين كانوا يمارسون نشاطهم في العراق لم يكونوا سعداء أبداً من فكرة قدوم اليسوعيين الأمريكان للعراق [6]

لذلك فان الأب ولش نصح بان تكون بغداد هي المنطقة الوحيدة التي يمكن أن يعمل فيها اليسوعيون دون أن يثيروا معارضة الفرنسيين الذين كانوا يشكلون حجر عثرة أمام الاباء، وهذا ما حصل فعلاً.

من ناحية أخرى فان أفراد البعثة اليسوعية الأربعة الذين طلب منهم الأشراف على إنشاء الكلية في بغداد، تم إبلاغهم رسمياً بان مستلزمات البدء بهذا المشروع جُهزت بما فيها المبالغ المالية التي أعدت لتمويله، والتي كان وعد بها الحبر الأعظم في روما بتوفيرها لتسيير عمل المشروع، البالغة (50.000) خمسين ألف دولار ،إذ أصبحت جاهزة لتوضع تحت تصرفهم[7].

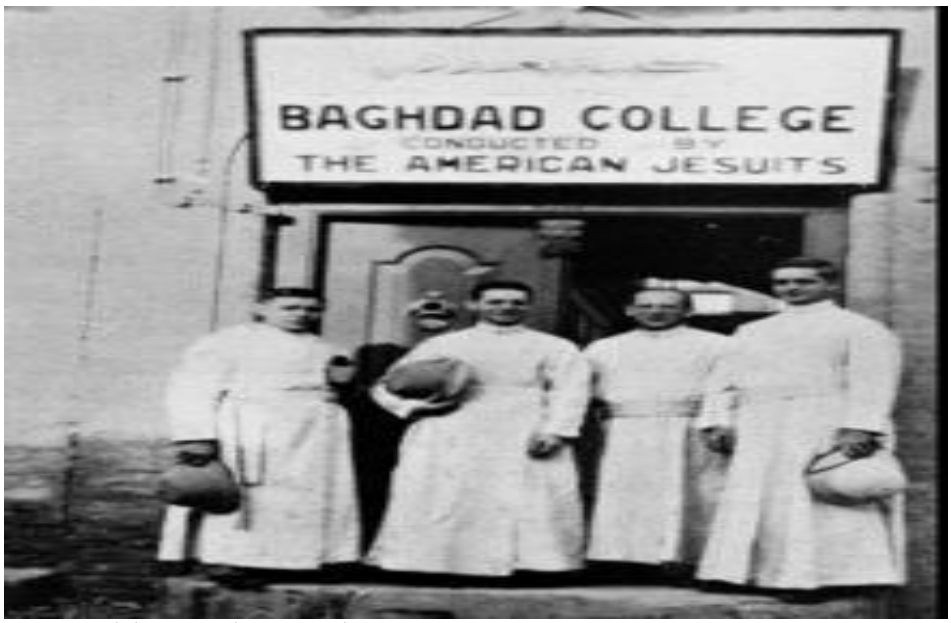

صورة رقم (2) توضح الاباء اليسوعيين المؤسسين لكلية بغداد

بدأت كلية بغداد بداية بسيطة ومتواضعة في دار مستأجر شرقي نهر دجلة في منطقة يطلق عليها اسم المربعة، الواقعة في

شارع الكيلاني والقريبة جداً من شارع الرشيد. برعاية وإشراف الآباء اليسوعيين الأمريكان التابعين لمقاطعة نيوانكَلند، وفي ضوء نظام تعليمي عريق وطويل يمتد إلى أربعمائة عام والذي كان على اتصال بالعراق واحتياجاته التعليمية المعاصرة ومما ينبغي الانتباه إليه، هو أن الاسم الذي كان مقرراً لكلية بغداد في البداية هو Baghdad College of the Immaculate conception[8]

وهذا الاسم وجد في الوثيقة التي وقعّت من قبل المؤسسين للجمعية التعليمية العراقية الأمريكية التي تشكلت في أميركا عام 1932.لم يواجه الآباء اليسوعيون عند وصولهم بغداد أية معارضة من قبل المسؤولين في الحكومة العراقية، وذلك لارتباطهم باتفاق مسبق، وحصولهم على اذن رسمي منها بشأن مباشرتهم بالعمل، وإن كان هناك شيء من الرفض من قبل بعض المسؤولين العراقيين في البداية فقط، إلا أنه تلاشى بعد أن أثبت الآباء حسن نواياهم لاحقاً[9].

من جهة أخرى فأن نظرة سريعة للدستور العراقي في تلك المرحلة تقودنا إلى قناعة كاملة بان ذلك الدستور لم يعمل بأي حال من الأحوال على معارضة إنشاء المدارس الأهلية والأجنبية في العراق شريطة أن تلتزم تلك المدارس بتعليمات وزارة المعارف العراقية وأن تكون مناهجها موافقة للمناهج العامة المتبعة في العراق، فضلاً عن ذلك فأن القائمين على الدستور العراقي لم تغب عنهم مسألة حق الأجانب بتأسيس مدارس عامة أقرتها ودعتها القواعد الدولية[10]

وبهذا الخصوص أوضحت أحدى تقارير وزارة الخارجية الأمريكية لشؤون الشرق الأدنى، أن الأب ولش بّين موقف الحكومة العراقية من مجيء الآباء وتأسيس كلية بغداد، ننقل نصاً ما جاء في التقرير: ((أن المسؤولين في الحكومة العراقية كانوا يحاولون تطوير بلدهم بسرعة كبيرة ويحاولون أن ينجزوا في عشر سنوات ما أنجزته أوربا في قرن، المسؤولين بالحكومة كانوا يشعرون بفخر كبير ومصممين على أن يضعوا بلدهم في مصاف الدول الأوربية بأسرع وقت ممكن، ولش يعتقد أن مثل هذا التطور السريع كان من المستحيل انجازه في تلك الظروف)).[11]

مما سبق يبدو واضحاً، أن هذه المؤسسة التربوية بدأت بداية بسيطة جداً في عقار مستأجر احتل موقعاً متميزاً في مركز العاصمة بغداد، يطل على شارع الرشيد في محلة المربعة، وكانت يومذاك مدرسة صغيرة للغاية تشغل بناءين صغيرين، تم استئجارهما لهذا الغرض، ومن ثم زودت بالكتب والمعدات اللازمة للمباشرة بأعمال التدريس، ومما لا شك فيه أن تزويدها بهذه الكتب كان يجري بتوجيه مباشر من الجمعية التعليمية المشرفة على المهمة اليسوعية بالتنسيق مع جامعة جورج تاون الأمريكية.ومما هو جدير بالملاحظة، أن تلك الدار لم تستوف كل الشروط الملائمة لاستمرار الدراسة فيها مدة طويلة[12] ، إذ تميزت بقلة الصفوف التي هي أصلاً مقامة في غرف صغيرة جداً ذات أرضية غير مناسبة، فضلاً عن أن الإضاءة فيها كانت سيئة وذات أثاث ومقاعد متواضعة، وأخيراً كانت الأبواب والشبابيك غير مناسبة مما جعلها عرضة للبرد والعواصف الترابية. ونظراً للازدياد المستمر في أعداد الطلبة، فأن المبنى المؤجر في المربعة ضاق بهم ولم يعد المكان كافياً لاستمرار الدراسة فيه هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان للنجاح الذي لاقته كلية بغداد والقائمون عليها بفعل الإقبال الكبير عليها سبباً كافياً في أن يتخذ الآباء اليسوعيون قرارهم بنقل موقع الكلية بعد مرور عامين على افتتاحها[13]، إذ وقع اختيار الآباء على الحافة الشمالية لبغداد في منطقة الصليخ وذلك في عام 1934، فقد تم استئجار بيت يقع على ضفاف نهر دجلة، وهي مبنية على الطراز العربي القديم ومؤلفة من طابقين مع وجود رواق حول الطابق الثاني، استخدمت قسماً من الدار كسكن للآباء في حين خصص القسم الآخر لشؤون الدراسة وما يتعلق بها[14].

استمرت الدراسة في هذا الدار حتى عام 1936، وبعبارة أخرى أن التدريس في كلية بغداد منذ تأسيسها حتى عام 1936 كان يجري في بنايات مستأجرة إلى أن تم شراء أرض قريبة من العقار المؤجر في الصليخ من قبل الجمعية التعليمية العراقية الأمريكية، هذه الأرض الجديدة تقرر أن تكون موقعاً ثابتاً لكلية بغداد، تبعد حوالي أربعة أميال شمال مركز العاصمة بغداد وهي عبارة عن أرض زراعية تبلغ مساحتها حوالي (25) ايكر (الأيكر الواحد يساوي 4050 متر)تباينت الآراء حول سبب أختيار الموقع المذكور لكلية بغداد، فهناك من يرى أن الآباء اليسوعيين اختاروا هذه المنطقة لعدة عوامل، أهمها موقعها الممتاز وهواؤها النقي وهدوءها الشامل وبالتالي العمل بحرية في هذا المكان الواقع في منطقة بعيدة عن مركز المدينة ومشاكل الناس وعن كل ما يعكر صفو الدراسة[15] ، مما يدل على أن الآباء كانوا يقدرون جيداً ما للموقع الصحي من تأثير على المستوى العلمي والثقافي للطلبة، فضلاً عن ذلك أنه كلما كان المكان كبيراً كلما توسع وازداد عدد الطلبة المقبولين في الكلية، الأمر الذي يتطلب حتماً تحسين كفاءة الخدمة التعليمية والتربوية المقدمة للطلبة[16] .

في حين علل آخرون بان سبب الانتقال هذا يعود إلى رخص تلك الأراضي، إذ كانت منطقة الصليخ تقع في أطراف بغداد، وهي عبارة عن أراض زراعية وبساتين ومن الطبيعي أن تكون قيمتها المالية اقل بكثير من المناطق الداخلة في حدود ونطاق مركز العاصمة بغداد، وتؤكد الشواهد التاريخية على أن الآباء اليسوعيين هم أول من شيد بنايات كبيرة وحديثة في تلك المنطقة[17].

في حين كان هناك رأي آخر يتناقله الناس في بغداد يرى أن سبب اختيار هذا الموقع بالذات كان لدوافع دينية، إذ أن هذه المنطقة المسماة (الشماسية) فيما مضى كانت تحفل بعدد من الأديرة التي تضم في جنباتها عدة كنائس مسيحية أهمها، دير (درمالس) و(دير سمالوا)[18].

مهما يكن من أمر، فان اختيار الآباء لضاحية الصليخ ربما يعود إلى دراسات تاريخية قديمة، ولكن ما يجب ذكره في هذا الموضع هو أن اعتدال مناخ المنطقة ونقاء هوائها والهدوء السائد فيها، فضلاً عن وقوعها بالقرب من نهر دجلة وأحاطتها بالبساتين، هو الرأي الأرجح وراء اختيار ذلك المكان[19].

وهكذا نجد أن أكثر التقارير المرفوعة إلى معارف بغداد عن طريق المفتشين الذين زاروا الكلية، وصفتها بأنها تقع في منتصف حديقة غناء تحيط بها الأشجار المختلفة من كل جانب، وهي بحكم موقعها هذا بعيدة كل البعد عن مشاكل الناس وضوضاء المدينة[20]

وتميز موقع كلية بغداد الجديد بإحاطته بعدد من الجيران الذين هم في مراكز السلطة في الحكومة من بينهم حكمت سليمان، الذي عمل ومنذ السنوات الأولى لانتقال الكلية إلى موقعها الجديد في جهة الصليخ على توفير الدعم المعنوي لهم ومساعدتهم في تعزيز تواجدهم فيها خاصة بعد استقرارهم في المبنى الدائم سنة 1939. إذ قام بإرسال اثنين من أبنائه للدراسة فيها تشجيعاً ودعماً منه، من ناحية أخرى حظيت كلية بغداد خلال انتقالها هذا بعطف السيد سامي شوكت، الذي كان واحداً من جيران الكلية وممن كان يحضر حفلات التخرج التي تقيمها الأخيرة كل عام[21].

فضلاً عن أحاطتها بجيران آخرين كرشيد عالي الگيلاني وقصره القريب منها، وهو الشخص الذي تميزعمن سبقه بالموقف السلبي الذي اتخذه ضد الكلية في عام 1936، الذي عّد أول تحد واجهته كلية بغداد في انتقالتها الجديدة. ففي العام المذكور طلب الكيلاني من إدارة الآباء في كلية بغداد أن يتبرعوا بجزء من الأرض العائدة لهم إلى إدارة المدينة لغرض أنشاء مركز للشرطة عليها، وأيده في مقترحه هذا عدد من المسؤولين في الحكومة[22]

وكانت الأرض التي اختيرت لإنشاء المركز عليها تقع في الواجهة الأمامية للعقار العائد للكلية. تفاقمت الأزمة بعد أن تجدد الطلب أكثر من مرة بإزاء هذا التحدي فان الآباء لم يكن أمامهم أي خيار سوى قبولهم بالتبرع بهذه الأرض. ويبدو أن الآباء قد أدركوا جيداً حجم المخاطر التي ربما ستترتب عليهم أن هم فعلوا خلاف ذلك، إذ أن بإمكان المسؤولين العراقيين أن يصعبوا الأمور على الآباء مثلما هم قادرون في الوقت نفسه على تسهيلها، وذلك من خلال امتلاكهم للقوة والنفوذ وهذا ما يفسر سر استجابتهم السريعة لتلك المطالب[23] ، ومن حسن حظ الآباء أنه تقرر بناء مركز الشرطة على الطريق المؤدي إلى الواجهة الشرقية من الكلية، وبهذا انتهت المشكلة بسلام ومرت على رجال المهمة اليسوعية في بغداد دون أن تترك أي أثر يعرقل أعمالهم[24].

وفيما يتعلق بالتصميم المعماري وأعمال البناء التي أعدت سلفاً من أجل تشييد بنايات كلية بغداد الجديدة، فقد بذلت جهود حثيثة في هذا الجانب شملت رسم تصاميم البناء وإعداد الخرائط اللازمة للبدء في أعمال البناء على الأرض الزراعية الجديدة، إذ تم الاحتفال رسمياً بوضع حجر الأساس لها في عام 1936.والجدير بالذكر أن تصاميم البناية الجديدة المزمع إقامتها جلبت من أميركا بعد أن صاغها الآباء اليسوعيون بطريقة توافق مناخ العراق، وأن تكون هذه الأبنية من أفخم الابنية في المنطقة[25].

مما يبدو أن تلك التصاميم الهندسية وخرائطها التي وصلت إلى بغداد هي نموذج مشابه لتصاميم البناء الموجودة في كلية بوسطن، فإذا أمعنا النظر في مشاهدة المباني الخاصة بتلك الكلية وبنائها المعماري نصل إلى قناعة حقيقية بأن كلية بغداد كانت تشبه إلى حد كبير التصميم المعماري لتلك الكلية الموجودة في ولاية بوسطن بأميركا أن لم نقل كانت نموذجاً مصغراً لها طبقاً لما جاء في أحدى وثائق كلية بوسطن[26].

وتجدر الإشارة إلى أن أهمية المنطقة الدينية وروعتها من حيث الخضرة والبساتين قد ألهمت إلى حد كبير نفوس الآباء اليسوعيين وشجعتهم الى أن يقوموا بالأشراف على أعمال التخطيط والبناء بأنفسهم، إذ تحولت هذه الكلية بعد سنوات عدة إلى أهم وأكبر مركز تعليمي في العراق، وذلك بسبب وضوح الهدف في أذهان القائمين عليها، فضلاً عن ذلك أن العمل ومنذ البداية كان يخضع للتخطيط والترتيب المنظم للمراحل التي يجب أن تمر بها سنوات هذه المدرسة استناداً لما ذكره شاهد عيان كان أحد طلبة كلية بغداد يومذاك[27]

قرر الآباء اليسوعيون إشغال العقار الجديد في ضاحية الصليخ موقعاً ثابتاً لكليتهم، والممتد من نهر دجلة غرباً وحتى واجهة الصحراء شرقاً، واستمر إشغالهم لهذا العقار طول الفترة الممتدة من عام 1936 حتى استيلاء الدولة عليه عام 1969. وتم إزالة معظم الأشجار المحيطة به وذلك لإقامة بنايات جديدة وساحات اللعب وحدائق ودور السكن للملاك التعليمي المكون من الآباء اليسوعيين وقسم داخلي للطلبة[28].

بعد أن أصبح مقر الإدارة جاهزاً عام 1938، منح الأب أندرسن بن جون اليسوعي، الإجازة الرسمية لمدرسة كلية بغداد الخاصة، وذلك في الرابع من كانون الأول عام 1938، وبهذا أصبحت الأرض المخصصة للكلية ملكاً رسمياً للجمعية العلمية القائمة على شؤون كلية بغداد بعد مصادقة أجازتها من قبل محمد رضا الشيبي وزير المعارف آنذاك[29].

كان أمراً طبيعياً، أن تسعى إدارة الكلية إلى توسيع بناية كلية بغداد، إذ بوشر بإحاطة الأرض البالغة 25 ايكر بسياج من الطابوق، إذ عزلت بالكامل عن المناطق المجاورة لها وكان ذلك في عام 1940-1941. وفي المدة الممتدة من عام 1941 حتى 1950 تم انجاز أول ملحق للصفوف وبناء المطعم الداخلي في الكلية، وفي الأعوام 1951-1955 تم تشييد بناية رايس العلمية وملحق جديد للصفوف سمي باسم الأب مدارسومبنى الكراج الخاص بوقوف سيارات النقل العائدة للكلية،(Cronin building) [30]

صورة رقم (3) توضح باصات نقل طلاب كلية بغداد عام 1951

فضلاً عن تشييد مبني كرونن وضمت البنايات الأولى التي أعدت وأصبحت جاهزة لاستيعاب الطلاب على أربعة عشر صفاً دراسياً وغرفة كبيرة للمحاضرات والاجتماعات، ومختبرات الفيزياء والأحياء والكيمياء ومكتبة وغرفاً أخرى للراحة، فضلاً عن مكتب الإدارة ومخزناً كبيراً للكتب.وصاحب ذلك البناء، تشييد مصلى القلب المقدس (الكنيسة) والمقبرة الخاصة بالآباء وذلك في عام 1953[31]

وفيما يتعلق بموضوع بناء الكنيسة داخل حرم الكلية، فيمكن القول بوجه عام، أن ظهور المدارس الكاثوليكية في العالم ارتبط بشكل وثيق بظهور الكنائس والأديرة جنباً إلى جنب معها، إذ كانت تلك المدارس التي تدار من قبل الجمعيات الدينية، تسير على وفق سياق ثابت يعتمد على بناء الكنائس ثم إلحاق المدارس بها، ونذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر جماعة الجزويت الكاثوليك[32].

وعلى هذا الأساس كان من الطبيعي أن تضع الجمعية القائمة بشؤون كلية بغداد ضمن أولوياتها عند شرائها للملكية الجديدة اختيار مساحة خصصت لإقامة بنايتين، الأولى للكنيسة والأخرى للدير الخاص بسكن الآباء اليسوعيين، فبعد انجاز مبنى الإدارة وانتقال الكلية إليها عام 1938-1939، شرعت الجمعية المشرفة للبدء ببناء الكنيسة خلال السنوات اللاحقة، إذ لم يتم الانتهاء من بنائها إلا في عام 1953 ،إذ أطلق عليها اسم مصلى القلب المقدس، تكونت من بناية كبيرة أبعادها الخارجية كانت (164×84) قدم وارتفاع الصليب الذي وضع في أعلى برج المبنى حوالي (90) متراً عن سطح الأرض. معظم تصاميم هذا المصلى وضعها الأب مداراس والأب كاي إلى جانب أشرافهما على عدد آخر من مباني الكلية، وألحق بهذا المبنى فيما بعد المقبرة الخاصة بالآباء، إذ احتوت هذه المقبرة بعد عدة سنوات على رفاة عدد منهم، وهي ما تزال موجودة إلى الآن[33].

أما الدير فان بناءه لم يكتمل إلا في نهاية الأربعينات، إذ استخدم في البداية كمحل لسكن الطلبة ثم تحول بعد عام 1949 كسكن دائم للآباء القائمون بأعباء الإدارة والتعليم في الكلية. كما احتوت الكنيسة على مكتبة عامرة ضمت عدد كبير من الكتب النفيسة والقيمة التي يعود قسم منها إلى زمن سبق تشييدها.إلى جانب ذلك فقد سعى القائمون على شؤون الكلية وبالتنسيق مع الجمعية المشرفة عليها وانطلاقاً من حرصهم على تأمين الخدمات اللازمة في الكلية بشكل أكثر انتظاماً وحيوية، لانجاز مشروع جديد اكتمل بعد عدة سنوات، وهو بناء مجمع سكني قرب الكلية يتكون من أربع وعشرين وحدة سكنية بدأ العمل فيها منذ منتصف الأربعينات وأصبح جزء من هذه الدور جاهزة للسكن في الخمسينات ومطلع الستينات بشكل كامل. كان الغرض من بنائها هو لتوفير أماكن سكن ثابتة ودائمة للموظفين والعاملين فيها من سائقي السيارات وعمال الخدمة والكهرباء، الذين كان يشكل المسيحيون النسبة الأكبر بينهم.في الوقع[34]

ان تلك البنايات قد أعدت على قدر كبير من التنسيق والذوق الفني الرفيع الذي انعكس في مبانيها وهندسة بنائها، إلى أن خرجت بالشكل الذي ساعد كثيراً على خلق جو لطيف ومناسب للدراسة. وهكذا وبمرور الزمن تحولت تلك الأراضي التي كانت مليئة بالحشائش والأشجار والأدغال إلى مروج خضراء، وظهرت بنايات كلية بغداد وملحقاتها من أكثر بنايات المدارس حداثة حينذاك، حيث أصبحت الكلية في نفس الوقت موقعاً دراسياً وترفيهياً ومسكناً للطلبة والآباء معاً، ذلك لاحتوائها على كل الشروط التعليمية والصحية[35]

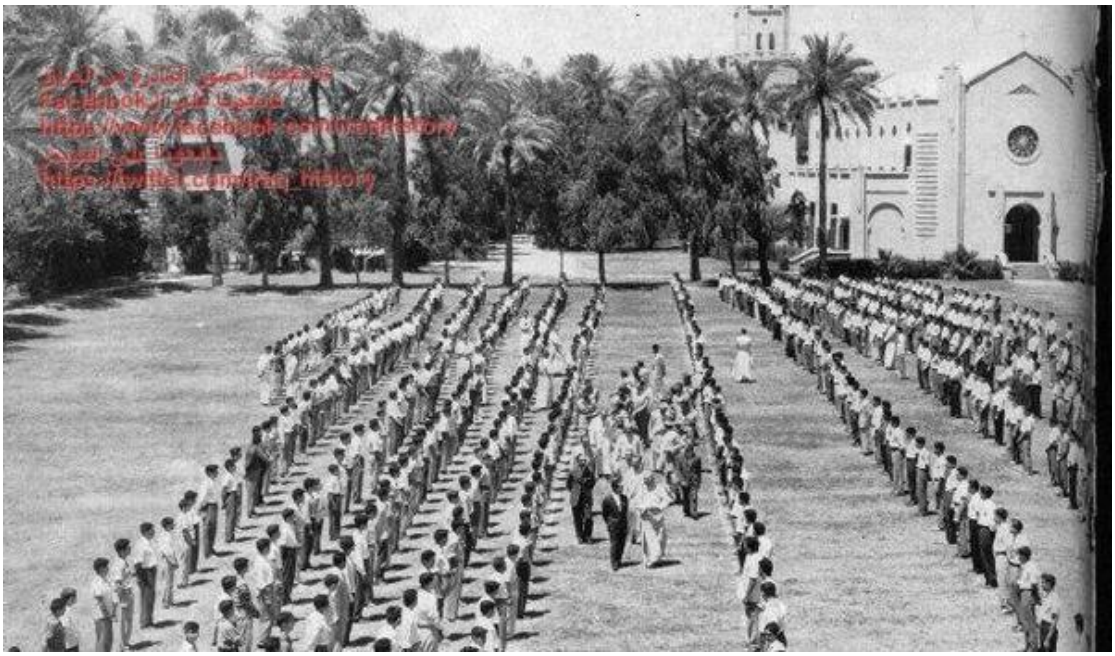

تميزت كلية بغداد بوجود يومين عطلة هما الجمعة والأحد ويكون يوم السبت مخصصا للدروس الغير أساسية والمختبرات والألعاب الرياضية والنشاطات اللاصفية كما أن وجود يومين عطلة ساهم في توفير الوقت للدراسة والتعلم كون الدوام في المدرسة كان مقتصرا على أيام الدراسة [36]

كانت العلاقة بين الاساتذة والطلا ب في المدرسة تتمتاز بأنهاعلاقة تربوية يسودها الصداقة والأحترام المتبادل وكانت مشاركة الأساتذة الأميركان في مختلف النشاطات الرياضية مع الطلاب، وتقام مباريات عدة بين منتخبات المدرسة للطلاب ومنتخبات الاساتذة أذ كان يشارك معهم اللاعب المرحوم عمو بابا في فعالية كرة القدم والسبب أن أخاه السيد البرت بابا كان معاون المدير لشؤون الباصات والنقل . في بعض الأحيان كانت تعطى عطلة يوم السبت مكافأة لفوز الطلاب على الأساتذة.درجة النجاح كانت 60 للمعدل العام للدروس وللأمتحانات اليومية المُفاجِئَة حصة كبيرة في الدرجة النهائية .كثافة الدروس وأنشغال الطلبة بالتحضير الدراسي والالعاب الرياضية والهوايات الأخرى [37]

. وعندما حدثت ثورة 1941 بقيادة رشيد عالي الكيلاني لم يترك اليسوعيون العراق، بل اخذ مسؤولوا الحكومة العراقية يرسلون ابناءهم الى كلية بغداد بحيث صارت قبله انظار النخبة.

بعد ازدياد عدد الطلبة المتخرجين من كلية بغداد فكر الاباء اليسوعيون باستقطاب اولئك المتخرجين ومنع مغادرتهم بلدهم العراق [38].

لذلك فكروا بتأسيس جامعة خاصة بهم سميت "جامعة الحكمة" تيمنا ببيت الحكمة الذي كان اسسه الخليفة المأمون احد الخلفاء العباسيين في بغداد عام 830م، واصبح مركزا للقاء الفلاسفة المسيحيين والمسلمين ومنه انبثقت اعمال التأليف والترجمة المنقولة من اللغة اليونانية الى اللغة السريانية ثم الى العربية. وقد عرف الأوربيون الفلسفة الاغريقية بواسطة الفلاسفة العرب عن طريق بلاد الأندلس في اسبانيا.

ابتدأ التدريس في جامعة الحكمة عام 1956 وذلك في بناية كلية بغداد وكانت الاختصاصات الأولى المتوفرة هي: إدارة الأعمال والهندسة ثم اضيف اليها اختصاص الآداب[39]

بعد ان تم اخذ موافقة الحكومة العراقية في 1955 واصدار الإدارة الملكية التي منح بموجبها الآباء اليسوعيين ارضا مساحتها اكثر من 262 دونما، لاستعمال الآباء اليسوعيين لبناء جامعة الحكمة. وكانت الأرض التي منحتها الحكومة العراقية لليسوعيين واقعة في جنوب بغداد في منطقة الزعفرانية بالتحديد. كان رئيس الوزراء نوري سعيد من اشد المتحمسين لإنشاء هذه الجامعة نظرا لما اظهره الآباء اليسوعيون من نجاح باهر في كلية بغداد. وذلك لإعطاء ثقافة متميزة وعالية للطلاب المتخرجين من تلك الكلية، وهذا ما استرعى انتباه الحكومة بشخص الملك فيصل الثاني الذي قام بنفسه بزيارة كلية بغداد عام 1956. وقد وهبت مؤسسة كولبنكيان الأرمنية مساعدات كبرى لأنشاء المشروع واستقبلت جامعة الحكمة منذ انشائها حتى اغلاقها عام 1968 ما يقارب 700 طالب وطالبة[40].

مغادرة الآباء اليسوعيين

وصل عدد الأباء اليسوعيين عام 1968 الى 61 شخصاً، بعد ان كان عددهم يقتصر على 4 آباء فقط في البداية. لكن حدث ما لم يكن في الحسبان، بعد أنقلاب تموزعام 1968 واسقاط حكومة عبد الرحمن عارف، وحرق القصر الجمهوري. أذ امرت الحكومة الجديدة في 25 تشرين الاول الاباء اليسوعيين في جامعة الحكمة بمغادرة العراق فورا، واقتصرت المهلة على مغادرتهم البلد خمسة ايام فقط. ومنعت الحكومة الطلاب من توديع الآباء اليسوعيين، لكن الطلاب المسيحيين والمسلمين لم يذعنوا لأمر الحكومة فذهبوا بالمئات الى المطار لتوديعهم[50]

بعد مغادرة اليسوعيين جامعة الحكمة تم تسليم مقاليد الادارة الى الكفاءات العراقية. ثم بعد جامعة الحكمة جاء دور كلية بغداد اذ طلبت الحكومة العراقية من الآباء اليسوعيين المتواجدين فيها المغادرة ايضا بعد تأميم كلية بغداد، تم الاستلاء على ممتلكاتها وتسليمها الى ادارة محلية وتم تأميم جميع المدارس الأهلية اسوة بكلية بغداد كان ذلك في عام 1973، اما الكنيسة والبناية الملحقة بها في الصليخ فقد سلمتها الحكومة العراقية للبطريركية الكلدانية[51].

ترك الآباء اليسوعيون صرحين ثقافيين مهمين: كلية بغداد وجامعة الحكمة، لكنهم خدموا ايضا خلال تواجدهم لأربعين سنة، لا فقط الجانب الثقافي بل الشعب العراقي بالعموم مسلمين ومسيحيين على حد سواء. لأن رسالتهم في التعليم كانت النهوض بالبلد من عقود التخلف السابقة [52]

والدليل على ذلك ان كل من مر عندهم ممن يمسكون مقاليد وزمام البلاد والتجارة والهندسة والاقتصاد لا يزالون يكيلون المدح لليسوعيين على تجردهم وسعة نظرهم، مع ذلك راحوا ضحية سوء الفهم وتقلبات التاريخ. لا من الجانب العراقي فحسب، بل حتى من بعض المسؤولين الكنسيين الغربيين. ومنهم رئيس اساقفة بوسطن الكاردينال كوشين الذي قال بصريح العبارة: "ان وجود الآباء اليسوعيين لهو خسارة في الجهد والمال، وذلك لأن الاباء لم يتمكنوا من هداية اي مسلم في العراق[53].

كان شعار الآباء هو تربية "اناس من آجل الاخرين"، لأنهم كانوا فعلا اناسا من من اجل الاخرين، فعملوا كل ما في وسعهم من اجل تثقيف أبناء العراق وبذلوا الغالي والنفيس، ولا زال رفات خمسة اباء شاخصة في دير الصليخ قرب كنيسة القلب الرافدين التي احبوها وتعلقوا بها على مدى 37 عاما[54]

وبسبب الظروف التي مر بها بلدنا العراق غادر مئات من خريجي كلية بغداد وجامعة الحكمة الى المهجر الأوربي والأمريكي. وفي الولايات المتحدة خصوصا يتم كل سنتين عقد لقاءات اسموها reunions تستقطب إعدادا كبيرة من اليسوعيين من اقليم بوسطن وطلابا قدامى من كلية بغداد وجامعة الحكمة. بحيث اصبحوا يتذكرون تلك الايام ويحنون اليها ويتذكرونها امام اولادهم كعصر ذهبي من تاريخ العراق[55]

.أستمر الدوام بصورة منتظمة حتى ما بعد منتصف السنة حيث بدأت التظاهرات تأتي الى كلية بغداد تطالب بتعريقها وطرد الاباء اليسوعيين منها مما سبب بعض الارباك للطلبة وأولياء أمورهم حول مستقبل تلك المدرسة العريقة .في نهاية العام الدراسي وفي صيف 1969 صدر قرار بتعريق كلية بغداد [56]

وطرد الأساتذة الاميركان والذين سبق أن دفن أربعة منهم داخل حدائقها مما سبب صدمة لهم قابلها العديد منهم بالبكاء والرحيل الى بيروت لتكملة المشوار في الجامعة الاميركية فيها والانترناشيونال كولدج.أستقبل الطلاب وأولياء أمورهم وعدد كبير من الناس الأكاديميين هذا القرار بحزن كبير لما يعرفوه من مزايا حميدة لهؤلاء المربون الأفاضل ومن أشهرهم الأباء باورز مدير المدرسة وبلتير وهسي وكوين[57].

تم الحاق كلية بغداد بالجامعة المستنصرية وجعلها مؤسسة مستقلة وقد شكل مجلس أدارة مقتدر وعلمي للأشراف عليها يتكون من المرحومة الأستاذة الدكتورة سعاد خليل أسماعيل وزيرة التعليم العالي انذاك والأستاذ الدكتور مسارع الراوي رئيس الجامعة المستنصرية ، والمرحوم الأستاذ القدير جمال حسين الالوسي مديرا لكلية بغداد، والدكتور عفيف العاني عضوا[58]

تم الأبقاء على كل الأساتذة العراقيين ممن كانوا على ملاك الكلية أو المحاضرين في مواقعهم وتعزيزهم بنخبة خيرة ومقتدرة علما وتربويا ومن أبرزهم معاونو المدير المرحوم الأستاذ القدير يوسف السامرائي, والاستاذ شاكر العطار, والاستاذ حمد الكبيسي , والاستاذ حازم عبدالأمير, والاستاذ عبد الجليل العرس [59] ,كذلك تم التعاقد مع عدد من الأساتذة الكبار والمحاضرين من كليات العلوم والاداب للتدريس في الكلية ومن أبرزهم الأساتذة المربين باقر الخليلي, وناصر طقطق, وسليم نعش, ويحيى وحيد الدين, وجعفر الزبيدي, وساطع الداوود والسيدة عقيلته الاميركية الجنسية كمدرسة لغة أنكليزية, ومنير العاني, وفائز البيرقدار, وسامي بطي, وعبد الرحمن كركجي, وعبد الجبار البدري, وعبد الجبار جودة, وحسن صادق حسن, وصبري منصور, وليون بانوس, وأيليا يعقوب, ويحيى نزهت , ورمو فتوحي , وعبد الغني العبيدي , ويعقوب يوسف , وخالد يوسف , وأحمد زين العابدين , ونيازي حسني ,ووليم عوض , وعبد الرحيم الزقة وغيرهم من المربين الكبار [60] .كذلك تم الأبقاء على نفس الأجور الدراسية والبالغة ستين دينار سنويا ,, ونفس أسعار الكتب العلمية والابقاء على أصدار المجلة السنوية للكلية (مجلة العراقي) [61].

تم تنسيب مدرسين للرياضة ومشرفين للمكتبات من الجامعة المستنصرية وهم السادة حميد الراوي وقاسم فنجان وعصام الالوسي ودُمَّر الراوي ,وأمينات مكتبة وموظفات أدارة والسيد عادل مشرفا على الباصات والنقل[62] .

كذلك تم الأبقاء على سكرتير المدير باورز سكرتيرا للمدير المرحوم الأستاذ جمال وهو السيد ولسن ملهم .كان الجميع يتسابقون ويبذلون كل الجهود للأبقاء على المستوى المتميز للكلية في كافة المجالات, وخصوصا المرحومة الدكتورة سعاد, والأستاذ الدكتور مسارع, والمرحوم الاستاذ جمال ,وكانت المرحومة وزيرة التعليم العالي تزور المدرسة يوميا تقريبا بسيارتها الوزارية (الستروين السوداء) في نهاية الدوام ولقرب مسكنها من موقع الكلية ولكون أولادها طلابا فيهابدأت السنة الدراسية 1969 – 1970 وهو العام الأول للمدرسة بعد التعريق[63]

حافظ المرحوم الاستاذ جمال الالوسي ومعاونيه على كل مرافق المدرسة بدون تغيير, بقيت الدور السكنية لعوائل الاخوة السواق والعمال في أخر المدرسة كما هي بذلت جهود كبيرة جدا ومشكورة للحفاظ على المستوى الدراسي والجو العام

للمدرسة بقيت نفس شروط النجاح في المعدل , وكل وسائل الأيضاح , والمختبرات , و كما تركها الأباء اليسوعيين , بدون تغيير[64] .

بعد التعريق , بدأت تدخل بعض التوجهات السياسية من أقصى اليسار , الى حزب الدعوة . شكل أتحاد وطني وعملت أنتخابات شارك فيها عدد من الطلاب , وانتخبت هيئة للأتحاد الوطني .بدأ معاون المدير لشؤون النقل السيد عادل, بتعيين مخبرين سريين من طلاب المرحلة الأولى لمراقبة المدخنين من الطلاب من بقية المراحل ورفع أسمائهم له حيث بدأت أساليب المخبر السري بقي العديد من خريجي كلية بغداد ومنهم مدراء عامين وأطباء أختصاصيين ومهندسين أستشاريين ورجال أعمال وضباط من(المتبقين في العراق) الى ذلك الوقت, بزيارتها للعب كرة البيزبول (كرة القاعدة) , والهاند بول مع أولادهم, وبعد أن تخطى قسم منهم منتصف العمر, وكأنها البيت الذي تربوا ونشأوا فيه [65]

الخاتمة

من خلال دراستنا للمصادر التاريخية التي تحدثت عن كنيسة الحكمة ، التي اصبحت فيما بعد واجهة رسمية لنشاط الاباء اليسوعيين في بغداد ، أذ اصبحت تضم فيما بعد صرحا علميا مهما الا وهو كلية بغداد ، الذي كان للاباء اليسوعيين الفضل الكبير في أنشاءها على طراز المدارس الحديثة ، وبأشراف البعثة اليسوعية الامريكية التي مارست عملها في العراق بالرغم من وجود معارضة من قبل الكاثوليك الفرنسيين

لم تكن كنيسة الحكمة التي انشأت من قبل اليسوعيين دارا للعبادة فقط ، أذ أتسع دورها لتكون مكانا للعلم والعبادة ، لاسيما بعد تاسيس كلية بغداد التي أصبحت أنموذجا للمدارس الثانوية في العراق من ناحية مستوى التدريس والمستوى العلمي للطلبة مما جعلها تغدو المدرسة الاولى في العراق من حيث أستقطابها لابناء الطبقات السياسية والاجتماعية المتنفذة في البلد هذا فضلا عن النظام الذي أتبعته الكلية من حيث فصل الجانب الديني عن الهدف التعليمي للمدرسة

واستنادا الى ذلك توافد على المدرسة الطلاب من مختلف الديانات والمعتقد وكان من اهمهم الطلاب المسلمين دون أن يكون للمدرسة اي دور تمارسه من حيث التبشير أو الضغط على الطلاب الملمين بهدف تغير دينهم ، ولقد أكسب هذا الامر المدرسة سمعة طيبة ، علما أن هذه المدرسة مازالت موجودة حتى يومنا هذا بالرغم من أنفصالها عن الكنيسة ، وأشراف وزارة التربية على كافة مناهجها التعليمية

قائمة الهوامش

1. ابراهيم خليل احمد، تطور التعليم الوطني في العراق1869-1932، منشورات مركز دراسات الخليج العربي البصرة،1982.، ص 24
2. المصدرنفسه، ص30
3. احمد جودة، تاريخ التربية والتعليم في العراق واثره في الجانب السياسي 1534-2009،بغداد،2009، ص45
4. أبراهيم خليل أحمد : المصدر السابق ، ص 53
5. احمد عبد الوهاب، حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر،الطبعة الأولىالقاهرة،1981.
6. المصدر نفسه ، ص 32
7. احمد شلبي ،مقارنة الاديان المسيحية،الطبعة العاشرة، القاهرة،1998.
8. احمد عبد الوهاب : المصدر السابق ، ص 44
9. الأب بطرس حداد، كنائس بغداد وديراتها،بغداد،1994.
10. ،المصدر نفسه ، ص 65
11. الاب يطرس حداد : المصدر السابق ، ص22
12. حسن الدجيلي،اصول التربية الثانوية ، مطبعة الرشيد ،بغداد،1959.
13. المصدر نفسه ، ص 34
14. حسين طعمة شذر،العراق وامريكا 1945-1958، الطبعة الأولى، دار الملتقى للطباعة والنشر،بيروت،1998، ص 76
15. حسن الدجيلي : المصدر السابق ، ص 44
16. رأفت غنيمي الشيخ، امريكا والعالم في التاريخ الحديث والمعاصر،القاهرة،2006.ص 67
17. المصدر نفسه ، ص70
18. راهي مزهر العامري ،وزراء المعارف في العراق 1920-1958،الجزء الاول، بغداد،2007.
19. المصدر نفسه
20. زكي صالح، مقدمة في دراسة العراق المعاصر، مكتبة الرابطة ،بغداد،1953.ص 56
21. ستيفن همسلي لونكريك، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ،ترجمة جعفر الخياط،الطبعة الرابعة،د.م،1968.، ص 64
22. زكي صالح : المصدر السابق ، ص 76
23. ستيفن همسلي لونكريك : المصدر السابق ، ص 87

24. صفاء كريم شكر،المصالح الامريكية في العراق 1945-1952،بغداد،2008.
25. المصر نفسه ، ص31
26. ستيفن همسلي لونكريك : المصدر السابق ، ص51
27. طه مكي، تاريخ بغدادالحديثة، مطبعة دنكور الحديثة، بغداد،1935.
28. عبد الرزاق الحسني ، تاريخ الوزارات العراقية،الجزء الاول والثاني، الطبعة الخامسة ،بيروت،1978.
29. المصدر نفسه
30. المصدر نفسه
31. خالد العبيدي، التعليم الاهلي في العراق بمرحلتيه الابتدائية والثانوية تطوره ومشكلاته،مطبعة الادارة المحلية،بغداد،1970.
32. عبد الرزاق الحسني : تاريخ الوزارات العراقية ، ج1 ، المصدرالسابق ، ص34
33. فاروق صالح العمر، المعاهدات العراقية البريطانية واثرها في السياسة الداخلية1922-1948، منشورات وزارة الاعلام،بغداد،1977.ص 55
34. طه مكي : المصدر السابق ، ص38
35. خالد العبيدي : المصدر السابق ، ص 41
36. راهي مزهر العامري : المصدر السابق ، ص 54
37. المصدر نفسه
38. زكي صالح : المصدر السابق ، ص 37
39. المصدر نفسه
40. حسين طعمة شذر : المصر السابق، ص 44
41. غانم سعيد العبيدي : المصدر السابق ، ص 76
42. الاب بطرس حداد : المصدر السابق ، ص 77
43. أحمد عبد الوهاب : المصدر السابق ، ص 45
44. صفاء كريم شكر : المصدر السابق ، ص87
45. المصدر نفسه
46. المصدر نفسه
47. أحمد جودة : المصدر السابق ، ص 55
48. المصدر نفسه
49. عبد الستار محمد علوش : كلية بغداد 1928- 1969، دراسة تاريخية ، كلية التربية – الجامعة المستنصرية ، 2012، ص31
50. المصدر نفسه
51. صفاء كريم شكر : المصدر السابق ، ص65
52. غانم سعيد العبيدي : المصدر السابق ، ص66
53. المصدر نفسه
54. المصدر نفسه
55. ستيفن همسلي لونكريك : المصدر السابق، ص 54
56. عبد الستار محمد علوش : المصدر السابق ، ص37
57. المصدر نفسه
58. حسن الدجيلي : المصدر السابق ، ص 77
59. المصدر نفسه
60. عبد الستار محمد علوش : المصدر السابق ، ص 44
61. فاروق صالح العمر : المصدر السابق ، ص 44
62. عبد الستار محمد علوش : المصدر السابق ، ص 54
63. المصدر نفسه
64. المصدر نفسه
65. المصدر نفسه

قائمة المصادر والمراجع

1 - ابراهيم خليل احمد، تطور التعليم الوطني في العراق1869-1932، منشورات مركز دراسات الخليج العربي (البصرة،1982).

2 - ، الاستشراق وصلته بالامبريالية العالمية،(القاهرة،1973).
3 - احمد جودة، تاريخ التربية والتعليم في العراق واثره في الجانب السياسي 1534-2009،(بغداد،2009).
4 - احمد عبد الوهاب، حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر،الطبعة الأولى(القاهرة،1981).
5 - احمد شلبي ،مقارنة الاديان المسيحية،الطبعة العاشرة،(القاهرة،1998).
6 - الأب بطرس حداد، كنائس بغداد وديراتها،(بغداد،1994).
7 - حسن الدجيلي،اصول التربية الثانوية ، مطبعة الرشيد (بغداد،1959).
8 - حسين طعمة شذر،العراق وامريكا 1945-1958، الطبعة الأولى، دار الملتقى للطباعة والنشر،(بيروت،1998).
9 - حسن الدجيلي : أصول التربية الثانوية ، بغداد ، 1959
10 - خالد محمد العبيدي ،العراق والصراع الحضاري ، الجزء الاول ، مطبعة المختار،(بغداد،2009).
11 - رأفت غنيمي الشيخ، امريكا والعالم في التاريخ الحديث والمعاصر،(القاهرة،2006).
12 - راهي مزهر العامري ،وزراء المعارف في العراق 1920-1958،الجزء الاول،(بغداد،2007).
13 - زكي صالح، مقدمة في دراسة العراق المعاصر، مكتبة الرابطة ،(بغداد،1953)
14 - ستيفن همسلي لونكريك، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ،ترجمة جعفر الخياط،الطبعة الرابعة،(د.م،1968).
15 - صفاء كريم شكر،المصالح الامريكية في العراق 1945-1952،(بغداد،2008).
16 - طه مكي، تاريخ بغدادالحديثة، مطبعة دنكور الحديثة،(بغداد،1935)
17 - فاروق صالح العمر، المعاهدات العراقية البريطانية واثرها في السياسة الداخلية1922-1948، منشورات وزارة الاعلام،(بغداد،1977)
18 - عبد الرزاق الحسني ، تاريخ الوزارات العراقية،الجزء الاول والثاني، الطبعة الخامسة ،(بيروت،1978).
19 - عبد الستار محمد علوش : كلية بغداد 1928- 1969، دراسة تاريخية ، كلية التربية – الجامعة المستنصرية ، 2012، ص31